Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (9) Issue (5) 31May (2026)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

العقل من وجهة نظر باروخ اسبينوزا

م.م فؤاد لطيف تركي الشريفي

The Mind from the Perspective of Baruch Spinoza

fturki@uowasit.edu.iq
Assistant LecturerFuad Latif Turki Al-Sharifi

الملخص

باروخ سبينوزا هو أحد أهم الفلاسفة الهولنديين في القرن السابع عشر، ولد في أمستردام في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ وتوفي في لاهاي في ٢١ فبراير ١٦٧٧. في شبابه، تأثر بفلسفة رينيه ديكارت، وخاصة بمفهوم ثنائية الجسد والعقل، حيث اعتبرهما في البداية كيانين منفصلين. لكنه غيّر موقفه لاحقًا، وأكد أن الجسد والعقل هما كيان واحد يعبران عن طبيعة واحدة.بدأ سبينوزا مشروعه الفلسفي بنقد التاريخ الديني، حيث شدد على أهمية المعرفة العقلانية في فهم الدين، مما جعله عرضة للنقد والتهميش. رغم ذلك، أصر على جعل الله محورًا لفلسفته على مستوى عميق وشامل، وفتح باب النقاش والحوار حول الدين من منظور عقلاني دقيق. مزج سبينوزا بين المنهج العقلي والمنهج العلمي في نقد النصوص الدينية، رافضًا اعتبار النصوص الدينية كمرجع إلهي، بل اعتبرها وثائق تاريخية كتبها البشر وفي إطار فلسفته حول وجود الله، خلص إلى أن البرهان العقلي هو الوسيلة لإثبات صحة الأفكار، بما في ذلك فكرة وجود الله، حيث يرى أن الله هو "العلة لذاته" أو سبب وجود كل الموجودات.يُعد سبينوزا أحد أبرز المفكرين في القرن السابع عشر بسبب موقفه الفلسفي من الدين، حيث اعتمد على المعرفة العقلية الحدسية بدلاً من التجريبية، التي اعتبرها غير مترابطة. كما رفض المعرفة العقلية الاستدلالية لافتقارها إلى الوضوح والتميز، وهما صفتان أساسيتان لتحقيق المعرفة. هنا، يتفق سبينوزا مع ديكارت في أن الوصول إلى المعرفة الحقيقية يتم من خلال المعرفة العقلية الحدسية.**الكلمات المفتاحية** : باروخ سبينوزا , العقل , الفلسفة العقلانية

Summary

Baruch Spinoza was one of the most important Dutch philosophers of the 17th century. He was born in Amsterdam on November 24, 1632, and died in The Hague on February 21, 1677. In his youth, he was influenced by the philosophy of René Descartes, particularly the concept of mind-body dualism, initially considering them as two separate entities. However, he later changed his stance and affirmed that the body and mind are one entity expressing a single, unified nature.Spinoza began his philosophical project with a critique of religious history, emphasizing the importance of rational knowledge in understanding religion, which exposed him to criticism and marginalization. Despite this, he insisted on making God the core of his philosophy in a profound and comprehensive way, opening the door to discussion and dialogue about religion from a precise rational perspective.Spinoza combined the rational and scientific methods in his critique of religious texts, rejecting the idea of sacred texts as divine references. Instead, he viewed them as historical documents written by humans. Within his philosophy of God's existence, he concluded that rational proof is the proper method for validating ideas, including the idea of God’s existence. He saw God as "causa sui" — the cause of itself — or the source of all that exists.Spinoza is considered one of the most prominent thinkers of the 17th century due to his philosophical stance on religion. He relied on intuitive rational knowledge rather than empirical knowledge, which he regarded as disconnected. He also rejected inferential rational knowledge for its lack of clarity and distinctness — two essential qualities for achieving true knowledge. In this regard, Spinoza agrees with Descartes that the path to true knowledge is through intuitive rational understanding

Keywords: Baruch Spinoza ,Mind ,Rationalist Philosophy

المقدمة

يعد الاهتمام بالدراسات الدينية واللاهوتية واحداً من أبرز ملامح الفلسفة الحديثة، وهو اهتمام تحكمه طرق فلسفية تختلف عن تلك التي سادت في العصور الوسطى، حيث كان العقل البشري يُوجه في دراسة الدين وفق مناهج تقليدية. في الفلسفة الحديثة، رغم التركيز على الطبيعة والإنسان، بقي الدين في قلب النقاشات الفلسفية، وشهدت هذه الفترة تطورات فكرية قادها فلاسفة مثل فرانسيس بيكون، وتوماس هوبز، وباروخ سبينوزا، وديكارت، ونيكولا مالبرانش، وليبنتز، وجون لوك وغيرهم. وكان ديكارت على وجه الخصوص مفتاحاً لبدء هذه الحركة، حيث كانت دراساته مقدمة لانطلاق هؤلاء المفكرين في دراسة الدين واللاهوت.تتميز هذه المرحلة بأن العديد من المفكرين، رغم فقدانهم للإيمان التقليدي بالدين، لم يفقدوا اهتمامهم العميق بدراسته. وسبينوزا يعد واحداً من أبرز هؤلاء الفلاسفة، حيث لم تتفق العناصر الغرائبية والرمزية الروحية للدين مع منهجه العقلاني. وهذا ما جعله يتعرض لاتهامات عديدة، منها الهرطقة، إلا أنه رغم هذه التحديات استطاع أن يؤسس منهجاً فلسفياً شاملاً في دراسة الدين. في هذا الفصل، سنناقش حياة سبينوزا وفلسفته العقلية، إلى جانب قضايا أخرى تسلط الضوء على فكره.يقوم مشروع سبينوزا على تقديم رؤية كلية للوجود، انطلاقاً من إيمانه الراسخ بقدرة العقل البشري على فهم نظام الطبيعة. يقول سبينوزا: "قبل كل شيء يجب التفكير في وسيلة شفاء العقل وتطهيره لكي يجيد معرفة الأشياء". فهو يدعو إلى التمييز بين أنواع المعرفة، حيث يعتقد أن لكل نوع أسلوبه الخاص في الوصول إلى اليقين. بالنسبة له، المعارف البسيطة مثل اسم الشخص أو بيئته ليس لها قيمة كبيرة في وعي الإنسان.سبينوزا قسّم المعرفة إلى ثلاثة أقسام، الأول منها هو "المعرفة بالتجربة المجملة أو الاستقراء العامي"، وهو إدراك الجزئيات بالحواس بحيث تنشأ أفكار عامة في الذهن نتيجة تقارب الحالات المتشابهة. يضرب مثالاً على هذا النوع من المعرفة قائلاً: "مثل معرفتي أني سأموت لكوني رأيت أناسا مثلي ماتوا، وأن الزيت وقود للنار، وأن الماء يطفئها". ويرى أن هذا النوع من المعرفة غير منظم ولا يحكمه نسق واحد، مما يجعلها غير موثوقة أو غير ثابتة.

المطلب الاول : حياته ومصنفاته

باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza) ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢م في أمستردام، لأسرة يهودية هربت من الاضطهاد الديني في إسبانيا إلى البرتغال، ثم استقرت في هولندا. أظهر منذ طفولته ذكاءً واستعدادًا عقليًا استثنائيًا، مما جعل من السهل الاعتراف بأنه يمتلك خيالاً حيًا وعقلًا نافذًا. (عبد المعطي ,١٩٨٤: ١٦٢)رغم أن حياة سبينوزا كانت قصيرة، إلا أنها كانت مثمرة بما أنتجه من كتب ورسائل تناولت العديد من القضايا الفلسفية. خلال حياته، نشر سبينوزا كتابين فقط. الأول هو "مبادئ فلسفة رينيه ديكارت" مع ملحق بعنوان "خواطر ميتافيزيقية"، ونُشر هذا الكتاب في أمستردام. أما الكتاب الثاني فهو "الرسالة في اللاهوت والسياسة"، والذي نُشر أيضًا في أمستردام عام ١٦٧٠م، رغم أنه كتب على غلافه أنه طُبع في هامبورغ.كان سبينوزا يحاول الحفاظ على قدر من السرية حول أعماله نظرًا للجدل الكبير الذي أثارته أفكاره حول الدين والسياسة في ألمانيا دون ذكر اسم المؤلف(سبينوزا , ١٥٤٨) تعلم سبينوزا في شبابه اللغة العبرية ودرس التوراة والتلمود والفلسفة اليهودية في العصور الوسطى، إلى جانب تعلمه صناعة صقل زجاج النظارات، وهو تدريب تقليدي للحاخامات الذين كان يُتوقع منهم تعلم حرفة يدوية. ومع ذلك، بدأ سبينوزا يشك في الدين اليهودي، فتحول عن مشروعه ليصبح حاخامًا وبدأ بدراسة العلوم الإنسانية. تردد على الأوساط البروتستانتية حيث تعرف على طبيب تيوصوفي علمه الفلسفة الطبيعية والهندسة والفلسفة الديكارتية. قرأ أيضًا أعمال فلاسفة مثل جيوردانو برونو، مما زاد من ابتعاده عن اليهودية حاول زعماء الطائفة اليهودية إبقاء سبينوزا داخل المجتمع اليهودي بعرض مرتب عليه، لكنه رفض ذلك، وفي عام ١٦٥٦، تم فصله من الجماعة اليهودية، وتعرض للنفي من أمستردام بقرار من السلطة المدنية، حيث كان البروتستانت يرونه أيضًا شخصًا خطيرًا. بعد ذلك، عاش عند صديق في ضواحي المدينة لمدة خمس سنوات، حيث كسب رزقه من صقل زجاج النظارات وكان أصدقاؤه يساعدونه في بيعها (كرم ، يوسف , ب ت : ١٠٦).أثناء تلك الفترة، شهد سبينوزا أحداثًا مؤلمة أثرت فيه، مثل غزو جيوش لويس الرابع عشر لهولندا، وصعود الحزب الأورانجي للحكم، والاغتيال الوحشي للأخوين جان وكرنليوس دي ويت. هذه الأحداث تركت أثرًا كبيرًا في نفسه، وفي تلك الفترة بدأ في كتابة أعماله الفلسفية.انتقل سبينوزا عبر هولندا، حيث لقي ترحيبًا من أصدقاء ومعجبين بمذهبه. عرض عليه القائد الفرنسي كوندي الإقامة في فرنسا مع معاش، لكنه رفض، كما رفض عرضًا من أمير ألماني لشغل منصب في جامعة هايدلبرغ خوفًا من فقدان حرية التعليم كان سبينوزا يعاني من مرض وراثي في الصدر، مما جعله يعيش حياة بسيطة وهادئة، واكتسب لقب "القديس المدني". توفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧ في مدينة لاهاي. (سبينوزا , ب ت :١٥)كتب سبينوزا باللغة اللاتينية، وكان أول أعماله "مبادئ فلسفة ديكارت" في عام ١٦٦٠، الذي قدّمه كمقدمة لفلسفته الخاصة. كما كتب "الرسالة الموجزة في الله والإنسان وسعادته"، وهي موجهة لأصدقائه المسيحيين لكنها لم تُنشر في حياته، وقد ضاع الأصل وبقيت منها ترجمتان هولنديتان نُشرتا في عام ١٨٥٢. بالإضافة إلى ذلك، كتب سبينوزا "رسالة في إصلاح العقل"، التي تعتبر مقدمة في المنهج العلمي وقيمة المعرفة، وتقارن بأعمال مثل "المنطق الجديد" لفرنسيس بيكون و"المقال في المنهج" لديكارت. نشر بعد وفاته رسالته اللاهوتية السياسية، التي كانت تتناول مسائل الجدل حول الوحي والنبوءة والمعجزات

وحرية الاعتقاد(عبد المعطي , ١٩٨٤: ١٦٣)في عام ١٦٧٠، نُشرت "الرسالة اللاهوتية السياسية" دون ذكر اسم المؤلف، وسرعان ما اعتُبرت خلاصة للكفر في نظر خصومه. خلال تلك الفترة، كان سبينوزا يعمل على تأليف كتابه الأكبر "الأخلاق"، وكان يواصل تنقيحه وتفصيله باستمرار، مشاركًا أصدقاءه المقرّبين بما ينجزه. كان هؤلاء الأصدقاء يدرسون الكتاب معه، ويكتبون إليه حول المشكلات التي يواجهونها في فهمه. مع ذلك، كان سبينوزا حريصًا على عدم إطلاع أي شخص آخر على محتوى الكتاب قبل التأكد من موقفه الشخصي.رفض سبينوزا السماح لأي شخص بإطلاع الفيلسوف الألماني غوتفريد لايبنتز على كتاب "الأخلاق" قبل أن يتأكد من طبيعة العلاقة بينهما. وعندما تعمقت الصلة بينهما، أطلع سبينوزا لايبنتز على الكتاب. رغم ذلك، ظل سبينوزا مترددًا في نشر "الأخلاق" بسبب خشيته من إثارة الفتنة. لهذا السبب، لم يُنشر الكتاب إلا بعد وفاته في السنوات الأخيرة من حياته (١٦٧٥-١٦٧٧)، كتب سبينوزا "الرسالة السياسية"، لكنها نُشرت أيضًا بعد وفاته.(كرم ، يوسف, د ت : ١٠٦-١٠٧

المطلب الثاني : منهجة وفلسفته

منهج وفلسفة سبينوزا، يركز بشكل أساسي على تطهير العقل وتهيئته للتوصل إلى المعرفة الحقيقية. يرى سبينوزا أن أول خطوة في هذا الاتجاه هي التمييز بين أنواع المعرفة المختلفة وتقدير قيمتها. يميز بين أربعة أنواع رئيسية من المعرفة:

١. المعرفة السماعية: هي معرفة تعتمد على ما يُنقل إلينا من الآخرين، مثل معرفة تاريخ الميلاد أو الأنساب. هذه المعرفة غير علمية لأنها تعتمد على السمع ولا يمكن اختبارها أو التحقق منها.

٢. المعرفة التجريبية: هي معرفة تنشأ من التجربة الحسية المباشرة، وتتكون من إدراك الجزئيات بالحواس. من خلال تكرار الحالات المتشابهة، يستنتج الإنسان أفكارًا عامة، مثل معرفة أن الإنسان يموت من خلال ملاحظة موت الآخرين، أو أن الزيت وقود للنار والماء يطفئها. هذه المعرفة رغم فائدتها، فإنها تظل متفرقة وغير مؤكدة بالكامل لأنها تستند إلى غياب الظواهر المعارضة أكثر من كونها قائمة على إثبات علمي.

٣. المعرفة العقلية الاستدلالية: هي معرفة تستنتج الأمور من بعضها البعض، مثل استنتاج العلة من المعلول أو العكس، أو تطبيق قاعدة عامة على حالة جزئية. على سبيل المثال، يمكن للإنسان أن يدرك أن الشمس أكبر مما تبدو عند النظر إليها بسبب معرفة أن الأشياء تبدو أصغر من بعدها. هذه المعرفة يقينية، ولكنها تظل متفرقة وغير مترابطة تمامًا.(كرم يوسف , د ت :١٠٨-١٠٩)

٤. المعرفة البديهية: هذا النوع من المعرفة هو الأكثر يقينًا وتماسكًا، لأنه يعتمد على الإدراك المباشر لأفكار بسيطة لا يمكن أن تكون إلا صحيحة. يرى سبينوزا أن الفهم البشري قادر على تكوين أفكار حقة من خلال الاعتماد على هذه الأفكار البسيطة والمطلقة، مثل الامتداد، الكم، والحركة. من خلال ربط الأفكار البسيطة، يمكن تشكيل أفكار أكثر تعقيدًا، مثل فكرة الكرة التي تنشأ من دوران نصف دائرة حول قطرها في فلسفة سبينوزا، لا يحتاج العقل إلى الاعتماد على بديهيات كلية ومجردة إذا كانت الأفكار البسيطة متعينة تمامًا وواضحة بذاتها.(بريهة, ١٩٨٣: ٢٠٢) ومن هنا، يسعى سبينوزا إلى بناء نظام معرفي متكامل ومتماسك قائم على العقل والاستنتاجات الضرورية، بعيدًا عن الأسس الميتافيزيقية التقليدية التي كانت سائدة في عصره سبينوزا يؤكد أن المعرفة الحقة تعتمد على الفهم الرياضي والعقلي للعالم، حيث يمكن للفكر أن يكوّن أفكارًا واضحة ومحددة تعبر عن طبيعة الأشياء بطريقة يقينية.في عرضه لفلسفة سبينوزا ومنهجه، يمكن تلخيص مذهبه من خلال ثلاثة من أهم كتبه: "إصلاح العقل"، "الأخلاق"، و"الرسالة اللاهوتية السياسية". كتاب "الأخلاق" هو المحور الأساسي الذي يلخص ويكمل أعماله السابقة، وقد استخدم فيه سبينوزا المنهج الهندسي، وهو المنهج الذي يتناسب مع فلسفة وحدة الوجود التي يعتمدها سبينوزا، والتي تبدأ من الواحد (الله) لتنزل إلى الكثرة (العالم والإنسان). الكتاب مقسم إلى خمس مقالات:

١. في الله: تتناول طبيعة الله وعلاقته بالعالم.

٢. في النفس: تبحث في طبيعة النفس وأصلها.

٣. في الانفعالات: تدرس أصل وطبيعة الانفعالات الإنسانية.

٤. في عبودية الإنسان أو في قوة الانفعالات: تعالج كيفية تأثير الانفعالات على الإنسان.

٥. في قوة العقل أو في حرية الإنسان: تركز على قدرة العقل على تحرير الإنسان من عبودية الانفعالات.

ركز سبينوزا على الأخلاق في المقالتين الأخيرتين، لكنه أطلق اسم "الأخلاق" على الكتاب بأكمله لأن الهدف الأساسي لفلسفته هو العمل والسعي نحو الخير، ولأن توجهه الأساسي أخلاقي، يشبه في ذلك الرواقيين. (عبد المعطي , ١٩٨٤: ١٨٥)

المنهج الهندسي:

اتباع سبينوزا للمنهج الهندسي مستوحى من الهندسة الإقليدية، حيث يعتمد على التعريفات والبديهيات كأساس منطقي لتطوير القضايا والاستنتاجات. الفيلسوف يضع تعاريف ومبادئ تبدو وكأنها مقدمات للمناقشة لكنها في الواقع تطالب بالبرهان، وأحيانًا تكون هذه المبادئ متعارضة. على سبيل المثال، لإثبات أن الجوهرين المختلفين لا يمكن أن يؤثرا على بعضهما البعض، يعتمد على مبدأ يقول إن شيئين ليس بينهما شيء مشترك لا يمكن أن يكونا علة ومعلولًا. ومن جهة أخرى، لإثبات أن العقل الإلهي لا علاقة له بالعقل الإنساني، يعتمد على مبدأ مشابه وهو أن العلة والمعلول لا يشتركان في شيء. أحيانًا تأتي الاستدلالات لتثبت نقيض المطلوب.(كرم يوسف , د ت : ١٠٨-١٠٩)

كتاب "الأخلاق":

يُعد كتاب "الأخلاق" التعبير النهائي عن فلسفة سبينوزا. كُتب هذا العمل باللغة اللاتينية، لكنه نُشر بعد وفاته في عام ١٦٧٧. سبينوزا يقدّم نظامًا فلسفيًا شاملاً مستوحى من هندسة إقليدس. يبدأ الكتاب بتعريفات وبديهيات، ثم يتبعها بعدد كبير من القضايا والاستنتاجات المبرهنة منطقيًا، حيث يسير كل استنتاج بطريقة متدرجة من التعريفات والبديهيات.الجزء الأول من الكتاب يقدّم نظرية ميتافيزيقية حول الكون، تبدأ بفكرة الجوهر، وهي الفكرة المركزية في فلسفة سبينوزا. يرى سبينوزا أن هناك جوهرًا واحدًا (الله أو الطبيعة) هو الذي يحتوي كل شيء. وبهذا، يُعتبر مذهب سبينوزا مذهبًا في وحدة الوجود، حيث يرى أن الله والطبيعة هما الشيء ذاته. (كوتنغام , ١٩٩٧ : ٦٠)

الهدف الفلسفي:

يرى سبينوزا أن الهدف النهائي للفلسفة هو الخلاص من خلال معرفة الله. فالمعرفة الحقيقية لله تمنح الإنسان الفرح والحرية الأبدية. هذه الفلسفة تهدف إلى تحري الخير الذي يمكن نقله والذي يكون مصدر فرح دائم ومستمر. بناءً على هذا الهدف، لا يبدو سبينوزا أنه يسير في خطى ديكارت أو بيكون، إذ يركز على الخلاص الروحي والأخلاقي أكثر من الاهتمام بالتجربة الحسية أو العقلانية المجردة.نخلص مما سبق إلى أن فلسفة سبينوزا تقوم على أساس فلسفي وعقلي متين يتمثل في المعرفة العقلية الحدسية سبينوزا ينتقد المعرفة التجريبية ويعتبرها معرفة غير مترابطة وغير يقينية، كما ينتقد المعرفة العقلية الاستدلالية التي تعتمد على الانتقال من الكلي إلى الجزئي، لأنها تفتقر إلى الوضوح والتمييز الضروريين للمعرفة اليقينية. لذلك، يقترب سبينوزا في منهجه من ديكارت في اعتباره أن الحدس هو الطريق الوحيد للوصول إلى المعرفة الحقيقية واليقينية. (بريهة ,١٩٨٤ : ٢٠٣)وحدة الوجود يتصور سبينوزا العالم على أنه وحدة عضوية، مثل جسم الكائن الحي. فكل جزء من أجزاء الكون يؤدي وظيفة معينة، لكنه لا يستطيع أداء وظيفته إلا في سياق ارتباطه بالكل. وهذا ما يعكس مبدأ وحدة الوجود عند سبينوزا، حيث يرى أن كل الموجودات هي مظاهر للجوهر الواحد، الذي هو الله. وينكر سبينوزا وجود أي أحداث عرضية أو غير ضرورية في الكون؛ كل شيء مشروط بضرورة الطبيعة الإلهية، ولذلك فإن كل شيء موجود ويعمل بطريقة محددة بحكم هذه الضرورة. وفقًا لهذا الفهم، ليس هناك مجال للصدفة أو العشوائية في الكون.

الطبيعة الإلهية والجوهر الواحد

في فلسفة سبينوزا، الجوهر الإلهي هو ذات العلة، أي أنه يفسر نفسه بنفسه ولا يحتاج إلى شيء آخر لوجوده. الله هو الجوهر الوحيد الذي يحتوي على كل الصفات والخصائص، وكل الأشياء الموجودة في الكون هي تعبيرات أو مظاهر لهذا الجوهر الإلهي. كل ما يوجد، سواء كان ماديًا أو روحيًا، هو جزء من هذا النظام الضروري والمترابط الذي ينبع من الطبيعة الإلهية. (عبد المعطي , ١٩٨٤: ١٨٧-١٨٨)ميتافيزيقا الضرورة سبينوزا يرفض أي تصور للعالم باعتباره مؤلفًا من أحداث عرضية أو متغيرة، فكل شيء في الكون يتبع ضرورة ميتافيزيقية. وهذه الضرورة تستمد من الجوهر الإلهي، الذي يعتبر المصدر الأساسي لكل ما يحدث في الكون. وهذا يتناقض مع الفلسفات التي تتبنى فكرة العلة الأولى أو العالم كنتاج للفيض الإلهي كما في الأفلاطونية المحدثة.النظام الاستنباطي الاستنباط في فلسفة سبينوزا يشبه إلى حد كبير النظام الرياضي، حيث تُستنبط الحقائق بطريقة منطقية من المبادئ الأساسية. في كتاب "الأخلاق"، على سبيل المثال، يستخدم سبينوزا أسلوبًا مشابهًا لنظام إقليدس الهندسي، حيث يبدأ بالتعريفات والبديهيات، ثم ينتقل إلى استنتاجات منطقية مبرهنة. هذا النظام الاستنباطي ليس هدفه مجرد تطوير سلسلة من الحقائق، بل هو موجه لحل المسألة الأساسية التي انطلقت منها فلسفة سبينوزا: مسألة الطبيعة البشرية، وقدرتها على الاتحاد بالله. (كوتنغام ,١٩٩٧ : ٦٧)

المصير النهائي للإنسان فيما يتعلق بمسألة المصير النهائي للإنسان، لا يتركها سبينوزا للإيمان وحده، بل يعالجها من خلال منهجه الفلسفي العقلاني. سبينوزا يرى أن خلاص الإنسان ونجاته يرتبطان بالاتحاد مع الله عن طريق المعرفة الحقة. هذا النهج الفلسفي يشابه، من الناحية الخارجية، بعض المذاهب التيوصوفية ذات الأصل الأفلاطوني المحدث، التي تسعى إلى خلاص الإنسان عبر المعرفة الروحية والفلسفية. (بريهة , ١٩٨٣: ٢٠٣)

المطلب الثالث : العقلانية عند باروخ

معيار الحقيقة عند سبينوزا يتمثل في كونها صفة ذاتية للمعنى، وليس فقط في مطابقة المعنى مع موضوعه. بعبارة أخرى، الحقيقة ليست معتمدة على التحقق الخارجي أو الضمانات الخارجية، بل تعتمد على يقينية ذاتية داخلية في المعنى نفسه. عندما يصل العقل إلى فهم شيء ما بشكل كامل وواضح، يكون هذا الفهم يقينيًا بحد ذاته، ولا يتطلب أي دليل إضافي. المعرفة العقلية الحدسية وفقًا لسبينوزا، النوع الثالث والأهم من المعرفة هو المعرفة العقلية الحدسية. هذه المعرفة تدرك الشيء بماهيته أو بعلته القريبة. على سبيل المثال، عندما يدرك العقل أن النفس متحدة بالجسد، أو يدرك خصائص شكل هندسي بناءً على تعريفه، فإن هذه المعرفة ليست فقط يقينية، بل تمثل ذروة المعرفة عند سبينوزا. المعرفة الكاملة هذه المعرفة الحدسية تعد المعرفة الكاملة لأنها تقوم على معانٍ واضحة ومتميزة يُكونها العقل بذاته. سبينوزا يشرح أن هذه المعرفة تمكن العقل من خلق سلسلة مرتبة من الحقائق، بدءًا من مفاهيم بسيطة تتطور لتشكل الرياضيات والعلم الطبيعي. من خلال هذه المعرفة، يتمكن العقل من تجاوز الاعتماد على الحواس والمخيلة ويظهر فاعليته واستقلاله، ما يجعل هذه المعرفة المعرفة الصادقة واليقينية. (ديكارت ,١٩٩٣ : ٥٣)العلاقة بين الحقيقة واليقين بالنسبة إلى سبينوزا، المعرفة الصادقة لا تكون معلومة من جانب ومجهولة من جانب آخر. بل المعرفة التي نصل إليها بطريقة حدسية، تجعل الذهن يعلم بالضرورة أنها صادقة ولا يمكن الشك فيها. سبينوزا ينتقد الشك الديكارتي، الذي يستند إلى فكرة إمكان وجود إله خادع. بالنسبة لسبينوزا، لا حاجة لضمانات خارجية للحقيقة؛ فالمعرفة تكون يقينية بذاتها عندما يدرك العقل الحقيقة بشكل واضح.(مصطفى النشاز , ٢٠٢٢: ١٢٦)التطابق بين المعنى والموضوع سبينوزا لا يرى أن معيار الحقيقة يعتمد فقط على مطابقة المعنى مع الموضوع، بل يركز على الصفة الذاتية للمعنى. هذا يعني أن الحقيقة ليست مجرد توافق بين الفكر والواقع الخارجي، بل هي موجودة داخل الفكرة نفسها، وتظهر من خلال وضوح المعاني وتماسكها داخل العقل. (يوسف كرم , ٢٠١٨: ١٢٢)يرى سبينوزا أن المعرفة الحقيقية تعتمد على المطابقة التامة بين العقل والموجودات. بالنسبة له، المعاني الحقيقية هي تلك التي تتبع من القدرة العقلية على استيعاب الماهيات والقوانين الكامنة وراء الطبيعة، وذلك من خلال منهج يعتمد على العلية، حيث ترتبط الأشياء ببعضها البعض من خلال العلاقات السببية، وليس على المعلومات الجزئية المتعاقبة.الخطأ والتخيل يفرق سبينوزا بين صدق الفكر والخطأ في المتخيل. عنده، الخطأ لا يكمن في تصور شيء غير موجود، بل في عدم قدرة العقل على الإحاطة الكاملة بالشيء. على سبيل المثال، حين نتخيل الشمس قريبة منا لأننا نراها صغيرة في السماء، الخطأ هنا لا ينشأ من التخيل نفسه بل من جهلنا بالمسافة الحقيقية بينها وبين الأرض. وعندما نعلم أن الشمس تبعد عنا بمقدار قطر الأرض ستمائة مرة أو أكثر، لا نستطيع التخلص من هذا التخيل، لكننا ندرك الحقيقة بوضوح. (عويضة ,١٩٩٣ : ٥٢-٥٣)المعاني الكاذبة عند سبينوزا هي معانٍ غير مطابقة أو ناقصة تُأخذ على أنها مكتملة أو مطابقة. وهذا يختلف عن مجرد الجهل بالحقائق، إذ يرى أن الخطأ ينتج عندما يظن الإنسان أن المعنى الناقص أو غير المطابق هو الحقيقة. بهذا المعنى، الخطأ لا يتعلق بوجود شيء غير حقيقي، بل يتعلق بعدم إدراكنا الكامل للحقيقة.(يوسف كرم , ٢٠١٨ : ١٢٣)الحقيقة والمطابقة فان الحقيقة عند سبينوزا تقوم على التطابق التام بين العقل والموجودات. فالعقل يخلق المعاني من خلال فهمه للعلاقات السببية بين الأشياء، ويستنبط منها القوانين الدائمة التي تفسر الطبيعة. هذا الربط المنطقي بين الأشياء يستند إلى مفهوم العلة والمعلول، وهو ما يجعل المعرفة التي ينتجها العقل دائمة، بعكس المعرفة التي تعتمد على المعلومات الجزئية المتعاقبة، التي لا تؤدي إلى فهم شامل للظواهر.استنباط الماهيات سبينوزا يشير إلى أن الهدف من التفكير هو استنباط الماهيات والقوانين التي تفسر الطبيعة وترتيبها بعضها من بعض. فهو يعتقد أن العالم عبارة عن نظام مترابط لا متناهٍ من جهة عدد الأشياء والأحداث وظروفها. ولهذا، يكون التفكير الفلسفي الصحيح هو الذي يسعى إلى فهم الماهيات الدائمة بدلاً من الاهتمام بالتفاصيل المتغيرة والتعاقب الزمني للأحداث.(رفيق عجام , ٢٠١٧: ٤٣)

المطلب الرابع : علم الاخلاق

علم الأخلاق"، استخدم سبينوزا المنهج الهندسي بشكل واضح ومكثف، مما جعله أقرب إلى أسلوب علماء الرياضيات والهندسة. استند سبينوزا إلى تقديم الفلسفة من خلال تعريفات، بديهيات، مصادرات، قضايا، وبراهين، وهو منهج قد يبدو تقنياً أكثر من كونه فلسفياً. ومع ذلك، لم يكن سبينوزا أول من اتبع هذا النهج، حيث سبقته أسماء بارزة مثل فرفريوس، برقلس، دونس سكوت، وجوردانو برونو، وابن ميمون.اعتماد سبينوزا على هذا المنهج كان انعكاساً لتأثير الفلاسفة والمفكرين السابقين عليه، وكذلك محاولة لتطبيق الصرامة المنطقية التي تتميز بها الرياضيات في الفلسفة. في رسالة بعثها إلى هنريك فان دونبورغ في أغسطس ١٦٦١، أوضح سبينوزا رغبته في تطبيق هذا المنهج على فلسفته، وهي إشارة مبكرة إلى اهتمامه بعرض أفكاره بهذا الأسلوب. كما أن منهجه الهندسي ظهر في أعماله السابقة مثل "مبادئ فلسفة ديكارت"، حيث تبنى نفس الأسلوب في الردود على اعتراضات فلسفة ديكارت.يعد هذا المنهج الهندسي لدى سبينوزا محاولة لترتيب الأفكار الفلسفية بطريقة منطقية ومترابطة، بحيث يمكن للقارئ الانتقال من البديهيات الأولية إلى استنتاجات معقدة، كما لو كان يحل مشكلة رياضية.أفضل من الإساءة إلى، متظاهرين بأنهم لا يعلمون شيئًا

على الإطلاق عن آرائي لكي يلقوا عن كاهلهم أي تهمة أو مسؤولية. ولقد أفضى كل ذلك إلى أنه على الرغم من عدم وجود نية صريحة لدي في الوقت الحاضر بمنع نشر الكتاب، إلا أنني تراجعت عن الفكرة إلى حين انتهاء الوضع القائم، خشية أن يستغل الأعداء هذه الفرصة للإساءة إلي وإلحاق الأذى بي. ولهذا قررت تأجيل نشر الكتاب إلى حين توفر ظرف أفضل" هذا التأجيل في نشر كتاب "علم الأخلاق" يعكس حالة التوتر والعداء التي واجهها سبينوزا بسبب آرائه التي كانت تعتبر جريئة في زمنه. ففي ظل تلك الظروف، وعلى الرغم من اكتمال الكتاب، فضل سبينوزا الانتظار حتى تتحسن الأوضاع. وكانت هذه المخاوف متعلقة بالاتهامات التي وُجهت إليه بإنكار وجود الله، وهي تهمة خطيرة في ذلك الوقت، خاصة من قبل السلطات الدينية.ورغم استنكار البعض، فإن تأثير سبينوزا الفكري ازداد قوة مع مرور الوقت، خصوصاً بعد نشر كتاب "الرسالة في اللاهوت والسياسة" عام ١٦٧٠، حيث كانت رؤاه في الدفاع عن حرية الفكر والمعتقد نقطة تحول مهمة في الفلسفة السياسية الحديثة.قبل أن يتمكن من استكمال الرسالة في إصلاح العقل، توقف سبينوزا عن العمل عليها وركز جهوده على كتاب "علم الأخلاق" الذي يعتبره التعبير النهائي عن مشروعه الفلسفي. إذا نظرنا في "الرسالة في إصلاح العقل"، نجد أن هدف سبينوزا كان إصلاح العقل البشري بحيث يصبح قادرًا على الوصول إلى المعرفة اليقينية والصحيحة. كان يسعى، عبر التأمل العميق، إلى التوصل إلى فكرة الله كأصل ومبدأ للعلم الصحيح، وبالتالي تقديم منهج عقلاني يساعد الإنسان على بناء معرفته على أسس ثابتة وواضحة.علم الأخلاق، إذن، كان تحقيقًا لهذا المشروع. فقد طور فيه سبينوزا منهجه الاستنتاجي ليبني من خلاله نظامًا فلسفيًا شاملاً يقوم على المعرفة العقلية الحدسية. وعلى الرغم من أن *الرسالة في إصلاح العقل* لم يكتمل، فإن *علم الأخلاق* مثل الاستمرار العملي لهذه الفكرة، حيث يجمع بين التفكير الفلسفي الرياضي والطبيعة الإلهية ليشرح كيفية الوصول إلى السعادة الحقيقية والحرية من خلال الفهم الصحيح للعالم وللطبيعة الإلهية.في هذا السياق، كان *علم الأخلاق* هو ذروة فلسفة سبينوزا وتعبيره النهائي عن مفهومه عن الله، الطبيعة، والعقل. أما *الرسالة في إصلاح العقل* فكانت بمثابة المخطط الأولي لهذا المشروع الفلسفي العظيم، وهي التي أرست الأسس النظرية التي استند عليها في علم الأخلاق.العقل. أندري دربون (A. Darbon) يوضح أن الجزء الثاني من "الرسالة في إصلاح العقل" لم يعد ضروريًا بسبب التقدم الكبير الذي أحرزه سبينوزا في كتاب "علم الأخلاق". فكل الاستنتاجات التي كان سبينوزا سيطرحها في ذلك الجزء موجودة بالفعل في "علم الأخلاق". ما يجعل هذا الأمر ذا أهمية هو أن سبينوزا يرى أن الميتودولوجيا (المنهج) والأنطولوجيا (علم الوجود) غير منفصلين في فلسفته. على الرغم من أن العلوم الحديثة تميل إلى الفصل بين المنهج ونظرية المعرفة من جهة، وبين الأنطولوجيا والأخلاق من جهة أخرى، إلا أن سبينوزا تبنى منظورًا كليًا. بالنسبة له، دراسة المنهج لا تنفصل عن دراسة الوجود، كما أن الأنطولوجيا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالأخلاق والغائية.تأثير فلسفة سبينوزا، إذاً، يأتي من نظرته الشاملة التي تربط بين المعرفة والوجود والأخلاق. ففي "علم الأخلاق"، يقوم بتحقيق مشروعه الفلسفي الشامل الذي كان قد بدأه في "الرسالة في إصلاح العقل"، ويبين لنا كيفية الوصول إلى الحقيقة والحرية من خلال فهم العلاقات بين الله، الطبيعة، والعقل البشري.هذه النظرة الشاملة هي ما يميز فلسفة سبينوزا عن فلسفات لاحقة مثل فلسفة كانط، التي تفصل بشكل مبدئي بين مجالات مختلفة من المعرفة، كالمنطق، والأنطولوجيا، والأخلاق.في فلسفة سبينوزا، يتضح أن الأخلاق ليست مجرد جانب من جوانب التفكير الفلسفي، بل هي جوهر فلسفته بأكملها. يبدأ سبينوزا كتابه "علم الأخلاق" بالحديث عن الله، النفس، والانفعالات ليس لتقديم نظريات منفصلة عن الأخلاق، بل لتمهيد الطريق لفهم الفضيلة والسعادة كجزء من النظام الكلي للعقل والطبيعة. يوضح سبينوزا منذ البداية، كما يتبين من "الرسالة في إصلاح العقل"، أن البحث عن الحقيقة ليس غاية بحد ذاته، بل هو وسيلة للوصول إلى الخير الأعظم، والذي يتمثل في السعادة والخلاص.سبينوزا يرى أن الغبطة، أو السعادة العليا، ليست نتيجة للفضيلة، بل هي الفضيلة ذاتها. بمعنى آخر، ممارسة الفضيلة والعيش وفقًا لقوانين العقل والطبيعة تقود تلقائيًا إلى السعادة. لذا، فإن المعرفة والتفكير العقلي السليم ليسا هدفًا منفصلًا عن السعادة، بل هما شرط لتحقيق تلك السعادة.إن تقديم سبينوزا للمواضيع الميتافيزيقية، مثل الله والنفس، في الأبواب الثلاثة الأولى من "علم الأخلاق"، لا يعني أن هذه المواضيع منفصلة عن الأخلاق أو أقل أهمية. بل على العكس، هذه المواضيع هي الأساس الذي يبني عليه فكرته عن الفضيلة والسعادة. ما يجعل فلسفة سبينوزا متميزة هو ترابطها الشامل بين المعرفة العقلية، فهم الوجود، والأخلاق، حيث يسعى إلى إرشاد الإنسان إلى خلاصه من خلال الفهم العقلي للعالم والطبيعة والعيش وفقًا لهذا الفهم. وهذا ما يميز سبينوزا عن ديكارت وباسكال، فبينما كان ديكارت يبحث عن الحقيقة العقلية وباسكال عن السعادة القلبية، فإن سبينوزا يجمع بين الاثنين، موحدًا العقل والأخلاق في مشروع فلسفي واحد يسعى إلى تحقيق الخلاص والسعادة في هذه الحياة. (جلال الدين , ١٩٩٠: ١٤-٢٠)

نتائج البحث

نتائج البحث حول عقل باروخ سبينوزا يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١. العقل والمعرفة:

– قسم سبينوزا المعرفة إلى ثلاث مراتب: المعرفة الحسية (الخيال)، المعرفة العقلية الاستدلالية، والمعرفة العقلية الحدسية.

– اعتبر أن المعرفة الحدسية، التي تأتي من فهم الشيء من خلال علته القريبة، هي الأسمى، لأنها تقود إلى معرفة حقيقية ويقينية.

– سبينوزا اعتمد على العقل كمصدر رئيسي للوصول إلى الحقيقة، مخالفًا للنهج القائم على الوحي أو الإيمان الأعمى.

٢. العقل ووجود الله:

– سبينوزا قدم تصورًا عقلانيًا عن الله، مؤكدًا أن الله والطبيعة هما شيء واحد. وهو لا يؤمن بإله شخصي يتدخل في شؤون البشر، بل يرى أن الله هو جوهر الوجود.

– فلسفته ترى أن كل ما يحدث في الكون هو نتيجة ضرورات طبيعية وليست أحداثًا عرضية.

٣. نقد الدين بالعقل:

– سبينوزا استخدم العقل لنقد النصوص الدينية، واعتبرها مجرد وثائق تاريخية كتبها بشر.

– أكد أن النصوص الدينية يجب أن تُدرس بالعقل والمنهجية العلمية، مثل أي ظاهرة طبيعية، دون تقديس أو إعطائها صفة فوق الطبيعة.

– تعرض سبينوزا لانتقادات شديدة من علماء الدين، خاصة بسبب موقفه من فكرة الوحي واعتباره أن النصوص الدينية قديمة وتحتاج إلى قراءة نقدية.

٤. العقل والخلاص:

– فلسفة سبينوزا في "علم الأخلاق" تهدف إلى تحقيق الخلاص العقلاني. يرى أن الغبطة (السعادة القصوى) ليست مكافأة للفضيلة، بل هي الفضيلة نفسها.

– العقل هو الوسيلة التي تمكن الإنسان من التحرر من الخرافات والانفعالات، وبالتالي الوصول إلى حالة من الهدوء والاتحاد مع الطبيعة الإلهية.

٥. المنهج الهندسي والعقل:

– سبينوزا استعمل المنهج الهندسي في تقديم فلسفته، حيث اعتمد على القضايا والبراهين الرياضية في بناء فكره، ما يعكس رغبته في إقامة فلسفة عقلانية متماسكة.

– اعتبر أن العقل هو الأداة الأساسية لفهم العالم وأن الحقيقة لا تُعرف إلا من خلال الاستنتاج العقلي المنطقي.

باختصار، فلسفة سبينوزا حول العقل تتلخص في أن العقل هو الطريق الوحيد إلى الحقيقة، وأن التحرر من الخرافات والانفعالات يتم من خلال المعرفة العقلية التي تقود إلى السعادة والاتحاد بالطبيعة.

المصادر

١. بريهة ، اميل : تاريخ الفلسفة ، ج ٤ ، القرن السابع عشر ، تر : جورج طرابيشي ، ط١ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٣م ، ص ٢٠٢ .

٢. ديكارت , رائد الفلسفة في العصر الحديث : امل عويضة , بيروت – لبنان دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ١٩٩٣ : ١٣٨

٣. رفيق عجام , ٢٠١٧ , الاجماع والارادة في بعدها الواحدة قراءة جديدة لمفهوم الاجماع الاسلامي ,بيروت – لبنان دار الكتب العلمية : ٤٣

٤. سبينوزا , ترجمة جلال الدين سعيد , ١٩٩٠ رسالة في اصلاح العقل , دار الجنوب للنشر : ١٤– ٢٠

٥. سبينوزا ، علم الاخلاق : تر : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر : (د.ت) ، تونس : ص ١١ دارس ديني وفيلسوف ايطالي حكم عليه بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية ولد عام ١٥٤٨ ، وتوفى في روما عام ١٦٠٠ كان راهباً في البداية ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية الى الفلسفة

٦. كوتنغهام ، جون : العقلانية فلسفة متجددة ، تر : محمود منقذ الهاشمي ، مركز الانماء الحضاري ، ط١ ، ١٩٩٧ م ، – ص ٦٠ .

٧. كرم ، يوسف " تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، طه ، القاهرة ، (د.ت) ، ص ١٠٦ .

٨. محمد ، د. علي عبد المعطي : تيارات فلسفية حديثة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤م ، ص ١٦٢ .

٩. مصطفى النشاز , تاريخ الفلسفة الحديثة من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر ٢٠٢١ : ١١٥ القاهرة – مصر الدار المصرية اللبنانية